# القراءة الصوفية للنص

إعداد

**هواري حمادي**

جامعة مصطفى اسطنبولي معسكر

**تم استلام البحث في ٢٢/ ٩ /٢٠١٨ تم الموافقة على النشر في ٥ / ١٠ /٢٠١٨**

**الملخص:**

نهدف في هذا المقال إلى البحث في طبيعة القراءة الصوفية للنص، أو فهم طبيعة التأويل الصوفي للنص بأنواعه مختلفة ولاسيما نوعه الديني المتعلق بالقرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة، وتقوم دراستنا على منهج تحليلي وصفي لحقيقة الفهم الصوفي للنصوص،وتحليل العناصر التي يقوم عليها وأهمها معرفة خصائص ومميزات القراءة الصوفية للنص كقراءة تقوم على القلب و على المعرفة الغيبية واللدنية، و نقد العقل المجرد والمسدد والتحام القارئ بالنص، لغة عرفانية تتجاوز الظاهر إلى باطن النصوص، وكقراءة تتطلع إلى أبعاد مختلفة أهمها فهم الوجود ونشر ثقافة المحبة والتسامح والحوار بين الأديان، الدعوة إلى الأنسنة والتسامح، لكي نكشف في الأخير أنها قراءة ذات دلالات خاصة للنص سواء أكان دينيا أو بشريا ذات أبعاد أنطولوجية وأخلاقية منهجها التأويل العرفاني الذي يتجاوز العقل المجرد والفقه المسدد إلى أثر المعرفة اللدنية كمحدد لمعانيها عن طريق الجمع بين العلم والعمل، والانتقال من الظاهر إلى الباطن.

**الكلمات المفتاحية**: القراءة – التصوف- النص- القلب- اللغة.

**Abstract :**

The aim of this article is to research the nature of Sufi reading of the text or to understand the nature of the Sufi interpretation of the text in its various types, especially its religious type related to the Holy Quran or Sunna. Our study is based on a descriptive analytical approach to the truth of Sufi understanding of texts. And the advantages of Sufi reading of the text as reading based on the heart and on the knowledge of the metaphysical and secular, criticism of the abstract and abstract mind and the integration of the reader in the text, the language of the literalism beyond the apparent depths of the texts, and as a

reader looking at different dimensions, In order to reveal in the latter that it is a reading with special connotations of the text, whether religious or human, with an ideological and moral dimensions, the method of theological interpretation which transcends the abstract mind and the jurisprudence that is paid to the effect of secular knowledge as a determinant of its meanings by combining science and work, And the transition from the apparent to the subcontractor.

**توطئة:**

بعد التطور الحاصل في الأدوات المنهجية وآليات الفهم، أصبحت إشكالية القراءة الملحقة بالنصوص دينية أو بشرية، تعتبر أهم إشكاليات العصر، فمن خلالها نعيد استنطاق النصوص ولاسيما تلك المغلقة منها، توخيا لفهمها فهما جديدا مفيدا، وتوقا للاستفادة منها في مواجهة تحديات الراهن.

ومن بين النصوص التي تطرح إشكالية القراءة بقوة، النص الصوفي الذي يطرح مسألة الظاهر والباطن، هذا الأخير هو ما جعل الكثيرون يعتبرون لغة المتصوف، لا تختلف عن لغة الفيلسوف، بل هي لغة فيلسوف يتجاوز العقل إلى الذوق والمعرفة القلبية .

هذا الذوق هو ما سنحاول من خلاله، كشف حقيقة ومميزات القراءة الصوفية للنص بنوعيه:الديني كالقرآن الكريم والحديث الشريف و البشري كالقصائد الشعرية والأقوال النثرية المأثورة عن المتصوفة، بالتحديد سنبحث في الأسس الفلسفية المتحكمة في القراءة الصوفية، ولاسيما أنها تعتمد لغة العرفان والباطن التي تؤسس من خلالها لمفاهيم الذوق والفناء والجمال والعشق في إطار أنطولوجي بطله الإنسان الكامل...

**الإشكالية:** نحاول في هذه الورقة، معالجة إشكالية العلاقة بين النصوص الصوفية والدلالات التي تثيرها، فكيف تعبر القراءة الصوفية عن نمط خاص لفهم النصوص وعلى رأسها النصوص الدينية يتجاوز البيان والبرهان رغم أنه يسعى إلى للوصول إلى المعاني المتحجبة، وينتقل من الظاهر إلى الباطن رغم أنه يسعى إلى كشف المعاني المتخفية أو الأسرار التي تحملها تلك النصوص؟ فإذا كانت وظيفة القراءة هي الكشف والإيضاح واستخراج المعاني والمدلولات الخفية للنصوص فإلى أي مدى تلتقي مع التصوف باعتباره تخليا وتحليا وتجليا يقوم على الأسرار التي تأبى الظهور والانكشاف؟

**أسباب اختيار الموضوع:**

**أ-الأسباب العلمية** : أهم الدوافع العلمية لاختيار الموضوع التي دفعتنا لاختيار هذا الموضوع، أهمية عملية القراءة اليوم باعتبارها فضاءا دلاليا يسعى إلى كشف المعنى وفتح المستغلق في النصوص، ولاسيما في حقل النص الصوفي الذي يعبر عن منبع

للأسرار ومنطلق لاستنطاق عميق للنصوص الأصلية كالقرآن الكريم والحديث النبوي... يبقى دائما في حاجة للإفاضة والبحث ولاسيما مع التقدم الحاصل في آليات ومناهج القراءة في الفترة المتأخرة.

**ب-الأسباب الميدانية:** يعتبر اهتمامنا بالقراءة الصوفية للنصوص نابعا من دوافع اقتضتها التغيرات الطارئة في الميدان في عصر العولمة في القرن الحالي كالتطرف الديني والإرهاب ومخلفات العلم... التي نتج عنها هيمنة التقنية لحساب الأنسنة...وغيرها من الإفرازات التي عكرت صفو حياة الإنسان، والتي تكون –حسب نظرنا - القراءة الصوفية للنصوص ولاسيما المؤسسة لثقافتنا العربية الإسلامية الأنسب لمواجهة تحدياتها ولاسيما حينما تِؤسس لعالمية الإسلام كدين للتسامح والانفتاح على الإنسان الكوني، فلاكتشاف المعاني والدلالات وفق القراءة الصوفية أثرا هاما في بلورة ثقافة أو فهم خاص للإسلام يجعله أكثر فعالية في مواجهة الراهن على مستواه المحلي والعالمي.

**أهداف البحث:** نهدف من طرح موضوعنا، إلى عدة مرام منها:

- إدراك طبيعة اللغة الصوفية كنمط متميز من التأويل يقوم على أثر النص على القلب، والبحث في أسسها الفلسفية وكيفية توظفيها في فهم النصوص كاعتمادها على القلب ونقدها للعقل المجرد والفقه المسدد على حد سواء.
- نروم و نتوخى معرفة العلاقة بين النص الصوفي وأدوات القراءة المعاصرة كالتفكيك والسميولوجيا... من أجل فتح الباب نحو إقحامها في الفهم الصوفي في الدراسات المستقبلية.
- الهدف الأسمى لبحثنا إضافة إلى ما سبق، يكمن في مقاربة الأبعاد التي تتوخاها القراءة الصوفية في التعامل مع النص في مناحيها الأنطولوجية والكونية... من أجل الاستفادة منها في مواجهة الراهن اليوم ولاسيما الراهن العربي الإسلامي.

إذن سنعتمد في إثارة موضوعنا في شكله ومضمونه على ثلاث محطات وهي:
أولا: طبيعة القراءة الصوفية- ثانيا: مميزاتها وأسسها الفلسفية- ثالثا: أبعادها.

**١-طبيعة القراءة الصوفية:**

تدرك حقيقة القراءة الصوفية، باعتبارها مفهوما مركبا من كلمتين هما:

- أولا: القراءة: وتمثل في اللغة مصدرا للفعل قرأ –يقرأ- اقرأ "التي بدأ به نزول القرآن الكريم في قوله تعالى "اقرأ باسم ربك الذي خلق"([1])، وكانت من أكثر الكلمات طرحا عند المسلمين كرمز للعلم والمعرفة، رُدَ إليها مفهوم القرآن ذاته، ومن هنا أصبحت كلمة القراءة عند المهتمين بفهم النص القرآني، بغض النظر عن التغير الحاصل في مفهومها

[1] قرآن كريم، العلق: الآية ١ .

بين الاستخدام الكلاسيكي والمعاصر، العملية الكبرى التي ترتبط بها مختلف المسائل المتعلقة بالقرآن الكريم، منذ الوهلة الأولى لنزوله إلى يومنا هذا، ولكن القراءة كمصطلح تم تداوله بكثرة في الفترة المعاصرة، تتخذ مفهوما جديدا، إذ تتجاوز معنى النطق بالحروف والكلمات والجمل أو كتابتها، و" لا تعني هنا بالمفهوم العام، المطالعة وقراءة الكتب بل الفهم واستلهام المعاني الواردة في النصوص"([٢])، بحيث أصبحت اليوم ترتبط بالتعامل مع النص كحقل دلالي متنوع ومتعدد المعاني أوهي كما يقول المفكر اللبناني المعاصر'علي حرب": "نشاط لغوي مولد للتباين منتج للاختلاف"([٣])، أي أنه لا تنطق النص بل تستنطق النص بحكم أنه لا توجد قراءة مطابقة أو موضوعية واحدة ومشتركة تكشف معان محددة يمكن الاتفاق عليها بين الأفراد في شتى الأمكنة والأزمنة، وإلا لما كان الاختلاف في قراءة القرآن الكريم في شتى العصور وكان له معنا واحدا ثابتا ومتفقا عليه.

- ثانيا: الصوفية: وهي في مجال بحثنا صفة للقراءة، تجعلها تمثل نمطا من الفهم الملحق بالنص، يمثل ما يقدمه المتصوف له، ولكي نفهم معنى: -الصوفية والمتصوف...لابد أن نعود إلى مفهوم التصوف ذاته، الذي أثار كمصطلح، زوبعة فكرية تتعلق مفهومه وسبب تسميته بالدرجة الأولى، إذ اختلف الباحثون والمؤرخون حول المعنى الاشتقاقي لكلمة التصوف، و ربطها بعضهم بلبس الصوف عند المتصوفة ونسبها آخرون للصفاء -صفاء القلب-، بينما اعتقد آخرون بأنه مشتق من كلمة صوفيا وهي الحكمة...، وقد رجح 'ابن خلدون' ربط التصوف بكلمة الصوف، على أساس أن الصوفي هو من يلبس الصوف في شكل خرقة أو عباءة أو جلابة ويبتعد عن كل ما هو لباس فاخر ، يقول: "والأظهر إن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف، وهم في الغالب –أي المتصوفة- مختصون بلبسه، لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف"[٤]، ولكن هذا اللباس لا يعود إلى أثره الخارجي في الجوهر بل انعكاساته الداخلية على نفسية المتصوف أي الحكمة من لبسه وهي التقشف والزهد في الحياة والانقطاع عن ملذات الدنيا التي تبدو أول ما تبدوا في نوع اللباس الذي يلبسه الناس.

بعد طرح مفهومي القراءة والتصوف، نصل إلى أن القراءة الصوفية هي التأويل الصوفي للنص، يتجسد في نشاط الفهم الملحق به كفضاء دلالي يقوم على الأثر

---

[٢] الباحث وآخرون، قراءات في فكر وفلسفة علي حرب، -النقد، الحقيقة، التأويل- الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ٢٠١٠، ص١٤٣

[٣] حرب علي، نقد الحقيقة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط٣، ٢٠٠٥، ص٥.

[٤] ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة -ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ الع رب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط١، ٢٠٠٤، ص ٥٠٤.

الباطني له ويتجاوز ظاهر ألفاظه، وهي كفعل وممارسة موجودة منذ القديم لكن كمجال للنقد ترتبط بالدراسات الحديثة والمعاصرة، حيث يمكن أن نفهمها حسب جانبين متداخلين، الأول يتعلق بكرنولوجيتها أو مسار تطورها من الفترة الكلاسيكية إلى الفترة المعاصرة، الثاني يرتبط بطرحها طرحا فلسفيا إشكاليا ومنهجيا ونقديا أصبح متداولا بقوة اليوم نتيجة للتطور الحاصل في أدوات القراءة في الفترة الراهنة وانتهى إلى تأسيس دعائم قراءة معاصرة، فالأوليتجسد في قراءة المتصوف للقرآن الكريم أو الحديث أو أقوال الصحابة والتابعين -كتفسير ابن عربي للقرآن الكريم في كتاب الفتوحات–ويمثل أحد القراءات التأسيسية في التراثباعتباره جزءا من القراءات " التي قام بها المتقدمون، مفسرين كانوا أو فقهاء أو متكلمين أو صوفية"[٥] التي مارست تأثيرا كبير في شكل أنماط مختلفة من القراءات فيما بعد، أما الثاني فيتجلى في قراءة المفكرين المتأخرين للمتصوفة بالمناهج المعاصرة كالهرمينوطيقا والتفكيك والسميولوجياوالأنثربولوجيا وتحليل الخطاب... لفهم النص الصوفي كقراءة نصر حامد أبو زيد لتصوف ابن عربي، وهو باختصار قراءة للقراءة الصوفية للنص.

**٢-مميزاتها وأسسها الفلسفية:**

للقراءة الصوفية خصائص ومميزات أهمها ما يلي:

أ-قيامها على الزهد والتنسك والتطهير والتوبة: قامت القراءة الصوفية للديانات الكبرى بأنواعها المختلفة، وبما البوذية والزرادشتية ...في الحضارات الشرقية القديمة على التنسك وعلى أن الحياة ملئ بالعذاب ولابد من عدم الخضوع لها كما تجلى في أساطير الخلق والمصير...، واستمر هذا الاعتقاد حتى في الفلسفات الكلاسيكية، ومنها اليونانية الطبيعية مع هيراقلطس وفيثاغورس...ثم الفلسفة السقراطية مع أفلاطون وسقراط، وصولا إلى خريف الفكر اليوناني في العصر الهلنستي مع أفلوطين خاصة، إلى اعتبار الجسد والحس رمز للشر ولابد من محاربته وقهره للوصول إلى الحقائق، وحتى في الديانات المسيحية كالغنوصية واليهودية والإسلامية –الحركات الزهدية في العصر الأموي- اعتبرت كل الفرق الصوفية التي ترعرعت في كنفها، الزهد والتوبة وتزكية النفس...منطلقات لفهم نصوص الدين السماوي، الذي لا تفهم أسراره إلا لمن غادر الجسد وتأمل في ما وراءه وتحرر من أدرانه.

ب-اعتمادها على القلب وقيامها على المعرفة الغيبية واللدنية كأساس لبلوغ الحقيقة: من خلال تحليل قراءة المتصوفة للنص، ندرك أنهم يتجاوزون العقل المجرد والفقه المسدد ويجعلون المعرفة الذوقية القلبية اللدنية هي المحدد لها، لأن الصوفي يفهم معاني النصوص الدينية بواسطة القلب والذوق وبمعرفة من قبيل الوحي متجاوزا النظر العقلي،

---

[٥] طه عبد الرحمن، روح الحداثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط٢، ٢٠٠٩، ص١٧٦.

كما يتبين في قصة اللقاء بين 'ابن رشد' و'ابن عربي'، في الحوار بين الشيخ الأكبر وقاضي قرطبة: "كيف وجدتم الأمر في الكشف والفيض الإلهي، هل هو ما أعطاه النظر؟ قلت له نعم لا، وبين نعم و لا تطير الأرواح من مواردها والأعناق من أجسادها."[٦] في هذا المقتطف يظهر نقد المتصوفة للنظر العقلي كطريق للحقيقة واعتمادهم العرفان والذوق كمحدد لها، وفي نفس هذا الإطار يقول الأمير عبد القادر:- بصدد تفسير قوله تعالى في الآية ٢١من سورة الأحزاب: "لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة "- "هذه الآية الكريمة تلقيتها تلقيا غيبيا روحانيا، فإن الله تعالى قد عودني، أنه مهما أراد أن يأمرني، أو ينهاني، أو يبشرني، أو يحذرني، أو يعلمني علما، أو يفتيني في امر استفتيته فيه، إلا ويأخذني مع بقاء الرسم، ثم يلقي إلي ما أراد بإشارة آية كريمة من القرآن، ثم يردني إلي، فأرجع بالآية قرير العين، ملآن اليدين، ثم يلهمني ما أراد بالآية وأتلقى الآية من غير حرف ولا صوت ولا جهة، وقد تلقيت والمنة لله تعالى حوالي نصف القرآن بهذا الطريق"[٧]،هنا العودة إلى كتاب المواقف للأمير عبد القادر من شأنه أن يوضح الكثير من الأسس الذي تقوم عليها القراءة الصوفية في فهم معاني النصوص، وأهمها: "تعاطيها القلبي مع آي الذكر الحكيم والسنة الشريفة وأقوال السلف"[٨]، وبدون شك هذا التعاطي يرتبط "بمعرفة مباشرة بغير وسائط من مقدمات أو قضايا أو براهين إنها معرفة فوق عقلية لا يحوزها إلا من سلك سبيل التصوف وألهم المعرفة المباشرة ومن هنا أيضا تسمى المعرفة كشفا" [٩]، أما إذا بلغت هذه المعرفة درجة النورانية حيث تفيض أنوار الخالق على العارف فإنها تبلغ درجة العرفان، وبالتالي تقوم القراءة الصوفية للنص على الكشف في البداية وعندما تتقدم تقوم على نور يقذفه الله في قلب العبد المنقطع له والمتحد به الذي يحقق درجة الفناء ثم البقاء في أرقى درجاتها.

ج-نقد العقل المجرد والمسدد والتحام القارئ بالنص: من خلال المزاوجة بين العلم والعمل الممثل في التجربة الصوفية، تقوم القراءة الصوفية على تجاوز القراءة العقلانية كما وجدت عند المتكلمين وعند الفلاسفة من جهة والقراءة المسددة التي وجدت عند

---

[٦] نقلا عن: نصر حامد أبو زيد، هكذا تكلم ابن عربي، المركز الثقافي العربي، ط٣، ٢٠٠٦، ص ١٦٦.

[٧] الأمير عبد القادر الحسني الجزائري، المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف، تح: عبد الباقي مفتاح، مؤسسة الأمير عبد القادر، ط١، ٢٠٠٥، ص ١٠٥.

[٨] عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكر، مساجلات في قضايا اللغة والمعرفة والفقه والخطاب القرآني، ط١، ٢٠١١، دار القدس العربي للنشر والتوزيع،- وهران الجزائر، ص ٨٤.

[٩] بدوي عبد الرحمن، ملحق موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١، ١٩٩٦، بيروت لبنان، ص ٧٠.

الفقهاء من جهة أخرى، إذ تتأسس طبقا لمقولة الغزالي "العلم بلا عمل جنون والعمل بلا علم لا يكون" على الجمع بين العلم والعمل، حيث يزاوج المتصوف بين العمل أو التجربة الصوفية والعلم وهو التكون مع الشيوخ وينطلق من قصور بل وعجز النظر العقلي عن التماس الحقيقة، كما لاحظنا سابقا اضطراب ابن عربي في موقفه من النظر العقلي في قصة لقائه مع ابن رشد حينرفض طرق الفلاسفة والمتكلمين في الوصول إلى الله استنادا إلى النظر العقلي المجرد الذي اعتقد أنه قد يؤدي إلى الزيغ والضلال ولذلك اعتمد على طريقة جديدة تقوم على الكشف والمشاهدة واعتقد أنها هي السبيل الأمثل لإدراكه بالتعايش معه بنور يقذفه الله في القلب، وهي ما جعلته يعتمد التأويل الصوفي للقرآن الكريم القائم المعرفة اللدنية. "والأمير بدوره لم يكن يرضى بآراء المتكلمين ويرها سبب المحن والاختلاف اللامبدع، كما كان يرفض آراء أهل الرسوم (الفقهاء) الذين يقفون عند حدود النص ولا يرون له وجوها من الفهم والتأويل"[١٠] ولذلك يتجاوزها إلى ما يسميه بالقراءة الإشارية، وعند'طه عبد الرحمن'تظهر القراءة الصوفية ناقدة العقل المجرد وحده، وبالعقل المسدد وحده، وتتجاوزهما إلى ما يسميه بالعقل المؤيد، يؤكد أن"العقل المجرد عبارة عن الفعل الذي يطلع به صاحبه على وجه من وجوه شيء ما، معتقدا في صدق هذا الفعل، ومستندا في هذا التصديق إلى دليل معين"[١١]،ويبين أن اعتبار العقل جوهرا كما اعتقد اليونان وكما ذهب فلاسفة الإسلام يوقعه في التشييء حين ننزل على الممارسة العقلية صفة الذات التي تؤدي إلى التشخص والاستقلال والتحدد بالهوية، وفي التجزيء لأن العقل بموجب ذلك التصور يؤدي إلى تقسم تجربة العاقل الإنساني المتكاملة إلى أقسام مستقلة ومتباينة، وينتهي إلى وجوب عدم التسليم بهذا التصور لأنه يتعارض مع القول بوحدة الإنسان وتكامل أوصافه وتداخل أفعاله في مقابل جواز القول بوجود مفهوم فعالي وحركي للعقل لم يغب عن الممارسة الإسلامية، باعتبار أن العقل عند المسلمين يتعلق بالقلب وبالضبط بفعل القلب الذي يظهر في ثلاث صور مختلفة وهي صورة الربط التي يدرك من خلالها العلاقة بين معلومين، وصورة الكف والتي يدرك من خلالها ما يمنعه من الوقوع فيما يضر به من النزعات والشهوات، وصورة الضبط والتي تتجلى في إمساك القلب لما يصل إليه حتى لا ينفلت منه، وبهذا التصور ينتقد طه عبد الرحمن القراءات الحداثية للقرآن الكريم وينتصر للقراءة التي تقوم على المضمون عقدي إيماني وتتحرر من

---

[١٠] بومدين بوزيد، التراث ومجتمعات المعرفة، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ٢٠٠٩، ص ٥٨.

[١١] طه عبد الرحمن، العمل الديني و تجديد العقل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط٢: ١٩٩٧، ص ١٧.

الطابع الانتقادي المحض، وبالتالي غاية القراءة الصوفية التحام القارئ بالنص وليس انفصاله عنه، بالتجربة الإيمانية التي تجعل القارئ الصوفي يتلقى أسرار ومعاني النصوص وحيا وبمعرفة لدنية .

د-ارتباطها بلغة عرفانية تتجاوز الظاهر إلى باطن النصوص: التصوف مهما عاد إلى الصفاء أو الصوف أو صوفيا أو أهل الصفة أو اصحاب الصف الأول...، فإنه يتجاوز الزهد في ملذات الحياة الدنيا كما يتجلى في السلوك، إلى امتلاك المتصوف لغة خاصة يقدم بها قراءة متميزة للنصوص بأنواعها المختلفة، وهي لغة تجاوز الظاهر إلى الباطن، من خلال اعتبار الباطن هو المعنى الصحيح للنص وهو غاية التأويل الصوفي، الذي غايته تحصيل المعرفة الخاصة بأهل التصوف وهي المعرفة الذوقية أو اللدنية التي تشبه لغة الوحي، حيث يتأسس من خلالها ما يعرف بالعرفان الذي يسميه البعض بالغنوص، وهو المعرفة الباطنية التي تتجاوز اللغة العادية من جهة، ولغة التأمل الجاف والمجرد من جهة أخرى، لتقدم قراءة خاصة للنصوص الدينية التي تنطلق منها – وخاصة القرآن الكريم والحديث- تكون مصحوبة بالحب ومحددة الهدف وهو الاتصال بالله تعالى أعلى وأسمى الحقائق عند مختلف المتصوفة، وترتبط اللغة العرفانية بالباطن، حيث أن المتصوفة اعتمدوا نمطا معينا من الفهم للنص الديني يعتمد على أنهيحمل ظاهرا وباطنا، هذا الأخير لا يصل إليه الإنسان بالعقل بل بالقلب، ولا يدرك معانيه الحقيقية الكاملة إلا في تجاوز الظاهر وإدراك أثر الآية على القلب، الذي يظل وقفا على الأولياء والعارفين من رجال الصوفية،فحسب ثنائية الظاهر والباطن يفهم 'ابن عربي' النص الديني في كتاب 'الفتوحات المكية'، حين يبدي لكل آية معنيين: الأول ظاهري على طريقة الفقهاء والثاني باطني على طريق أهل الإشراق والعرفان وهو الحق الذي يظل وقفا على الخاصة وأهل العرفان.

ه-ارتباطها بنوع التصوف ونوع الطريقة: يختلف فهم المتصوف للنص حسب مذهبه وطريقته شيوخه، بحيث يفهمه صاحب التصوف الشيعي وفق اتجاهه الإشراقي العرفاني، و التصوف السني وفق الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين، كما أن نوع الطريقة الصوفية جعلت مختلف الكتابات الصوفية تختلف عن بعضها البعض والتي من دون شك تضمنت اختلافا في التعامل مع النص القرآني، لأن من الصوفيين "من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك، كما فعله المحاسبي في كتاب 'الرعاية' له، ومنهم من كتب في آداب الطريقة وأذواق أهلها ومواجدهم في الأحوال كما فعله القشيري في كتاب 'الرسالة'، والسهروردي في كتاب 'عوارف المعارف' وأمثالهم وجمع الغزالي رحمه الله بين الأمرين في كتاب 'الإحياء'،

فدوَن فيه أحكام الورع والاقتداء، ثم بين آداب القوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم" ([١٢]).

هذه بعض المميزات والأسس الفلسفية التي تطبع القراءة الصوفية للنص، تطبق في فهمه ولاسيما الديني منها، منهجا خاصا، يتجاوز الفهم الظاهر له إلى باطنه وما يحمله من إشارات ورموز، تفهم حسب أثرها على القلب وفي إطار علاقة الإنسان مع الله، وفي كنف الممارسة أو التجربة الصوفية بعيدا عن التنظير المجرد وفق لغة خاصة يملكها أهل العرفان وحدهم، وبعد التطور الحاصل في المناهج وعلى رأسها التفكيك، اصبحت القراءة الملحقة بالقراءة الصوفية للنص تقرأه في إطار المهمش والمسكوت عنه ، كما يظهر عند 'علي حرب' بصدد قراءته قراءة ثانية لتجربة 'رابعة العداوية' في كتابه 'الممنوع والممتنع' والذي صرح فيه قائلا: "أنا إذ أتناول تجربة رابعة على هذا النحو من التناول، فإني أقرأ فيها ما لم يقرأ، معاملا معها بصفتها سوسا للنفس وممارسة للحرية وعشقا للحقيقة أو ابداعا للذات"[١٣]، حيث يريد قراءة هذه المتصوفة، خارج إطار الجانب الروحي والتطهري والتعبدي وفي إطار العلاقة بالوجود وبالحقيقة، من ناحية أخرى يقرأها صاحب كتاب 'النزعات المادية في الفكر الإسلامي' 'حسين مروة'بالمنهج الماركسي منطلقا من النزعة المادية، حين يعتبر تجربتها كنموذج للحرمان الأرضي المتجه للعالم الآخر بديلا له، وفي مجال حقائق جديدة تتعلق بالجسد المقهور والحب الفاشل.

**٣-أبعادها:**

للقراءة الصوفية في الإسلام أبعادا مختلفة متنوعة، حيث تهدف إلى التهذيب والتطهير من أمراض القلوب، الربط بين الإنسان والخالق، والحصول على المعرفة الذوقية القلبية باعتبارها أسمى المعارف، وفي الفترة الراهنة في عصر العولمة ونتيجة لإفرازات التطور التكنولوجي كانتشار ظواهر التطرف الديني والنزعات الطائفية، وتزايد ظاهرة الاسلاموفوبيا،...لا نبالغ إن قلنا أن القراءة الصوفية للنصوص أصبحت حاجة ملحة، ولاسيما في البيئات التي ينتشر فيها المسلمون، لأنها ضرورية لفك طلاسم الكثير من المشاكل التي نجبت عن التغيرات التي عرفها العالم، كما سلف ذكرها على مستويات شتى، إذ أضحت المبادئ الكبرى التي قام عليها التصوف، كالأنسنة، والحب، التقارب بين الأديان وحوار الحضارات...، أهم ما يطلب اليوم لمواجهة المستجدات، ويمكن تفصيل بعض أبعاد القراءة الصوفية للنص في النقاط التالية:

---

[١٢] ابن خلدون عبد الرحمن، مصدر سابق، ص ٥٠٥-٥٠٦.

[١٣] حرب علي، الممنوع والممتنع، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط٤، ٢٠٠٥، ص ١٦١.

أ-فهم الوجود: تسعى القراءة الصوفية إلى ربط النص بأبعاد أنطولوجية، حيث يسعى المتصوف "للربط بين النص القرآني، وبنية العالم والوجود، من خلال تصور للعالم يربط بينه وبين الحلم، ويحوله إلى نص يجد تعبيره في القرآن"[١٤]، الذي يحمل أبعاد وجودية تجعله انعكاسا للعالم في الألفاظ والعبارات، التي لا تدرك إلا بتجاوز عالم الظاهر والنفاذ في عالم الباطن عن طريق التأويل الصوفي لألفاظه وفهم المجاز الوارد فيها، فلابد"أن يصبح تجاوز هذا العالم وإهماله شرطا جوهريا للوصول إلى الحقيقة ومعاينتها"[١٥]عند المتصوف بفهم أسرار الحروف والكلمات الواردة في النصوص. وآلية الاتصال بالعالم الآخر هي القلب الذي يمكن الصوفي من الاتصال بعالم الحقائق، بالتصفية والتطهير من كدورات الجسد، فالمتصوفة في نظر أبو زيد، استوعبوا اللغة من منظور الكلام الإلهي في تجلياته المختلفة أي على مستوى الوجود ومستوى النص، لأن الشيخ ابن عربي في نظره، قدم نظرة خاصة لتأويل الآيات القرآنية تتعلق بقضايا العقيدة والشريعة والوجود والإنسان أثنى عليها في كتابه الثاني حوله وهو 'هكذا تكلم ابن عربي'، الذي بين فيه أنه يقيم تأويله على جدلية الظاهر والباطن، على مستوى الوجود والشريعة في الوقت نفسه، مبينا أنها تعبر عن معين فكري لا ينضب، وذو صلة وثيقة بواقعنا اليومي، إذن "استدعاء ابن عربي -مع غيره من أعلام الروحانية- في كل الثقافات ضروري يمثل مطلبا، لعلنا نجد في تجربته، وفي تجاربهم، ما يمكن أن يمثل مصدرا للإلهام في عالمنا" ([١٦]).

ب-نشر ثقافة المحبة والحوار بين الأديان: الرسالة السامية التي جعلها المتصوفة نصب أعينهم في هذا الوجود، هي:" الحب النابع من الله، الحب الذي يرجع إليه، شأنه شأن كل واقع"[١٧]وفي إطاره تقرأ مختلف النصوص عندهم، وهذه الرسالة حسب 'غارودي' هي ما تلعب دورا كبيرا في التقارب بين المسيحية والإسلام، وذلك لأن "التذكير القرآني بعيسى بن مريم سببه لقاء روحي عميق بين الإسلام والمسيحية، ولدى الصوفيين المسلمين على وجه الخصوص، الذين يعبرون عن الأبعاد الداخلية والحب في الإسلام تعبيرا بقصائد طويلة في الغالب" [١٨]، فمن خلال القصائد والأشعار الصوفية يتجلى مبدأ الحب الذي هو الأصل في تحقيق التسامح ونبذ التعصب واحترام الآخر، كما أنه هو

---

[١٤]، نصر حامد أبو زيد، النص والسلطة والحقيقة-إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة-، المركز الثقافي العربي، ط٤، ٢٠٠٠، ص ١٦٥.

[١٥]المصدر نفسه ص ١٩٤.

[١٦]نصر حامد أبو زيد، هكذا تكلم ابن عربي، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط٣، ٢٠٠٦، ص ٢٨ .

[١٧]روجيه غارودي، الإسلام، دار الفارابي-الجزائر-، ط٢، ٢٠٠١، ص ٢٠.

[١٨]-المرجع نفسه، ص٢٢

الجامع بين الديانات، لأن "المتأمل للتراث الصوفي يقف على أن التصوف كمنهج حياة ظاهرة إنسانية، لم يخل منها دين من الأديان ولا حضارة من الحضارات، ذلك أن الاهتمام بالمعنى الإلهي، وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات الخالدة للإنسانية" "[١٩]، وفي إطارها يفهم النصوص الأصلية ويجعل غاية التأويل هو نشر مبادئ المحبة والحوار بين الأديان وتلافي الصراع بينها.

ج-الدعوة إلى الأنسنة والتسامح: إن أهم ما ترمي إليه القراءة الصوفية للنص الديني خصوصا، إرساء مبادئ الأنسنة و التسامح قولا وفعلا، إذ تظهر عند المتصوفين القدماء والمعاصرين: كابن عربي والأمير عبد القادر الجزائري...ومختلف المتصوفةالغاية القصوى لفهم النص، الدعوة إلى مبادئ الرحمة والتسامح،وتتجلى النزعة الإنسانية بوضوح عندالصوفيين المسلمين لأنهم انطلقوا من نصوص الدين الإسلامي وهي القرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال الأسلاف من الصحابة والتابعين من الأولياء والرجال الصالحين في فهم علاقة الإنسان بربه باعتباره جوهرا لهذا الوجود،كما يظهر في أفكار 'ابن عربي' حول الإنسان الكامل، ووحدة الوجود، حيث يحدد الشيخ مركزية الإنسان في الوجود من خلال نشأة آدم عليه السلام، مؤكدا أنه من خلال الكلمة الآدمية ترتسم نشأة العالم وتتضح علاقته بالله، وتتحدد معالم وحدة الوجود حيث سيكون الممكن ممثلا في جوهر الجنس البشري آدم ، وذلك لأنه عندما "اقتضى الأمر جلاء مرآة العالم بعدما كانت صورة مظلمة ، فكان آدم عين جلاء تلك المرآة وروح تلك الصورة"[٢٠]، هنا الإنسان يمثل انعكاسا للصورة الإلهية في الكون باعتباره روح العالم والنور الذي يعكس تجلياتها، فبعد ما كان العالم كالمرآة غير المجلوة لا يمكن رؤية الصورة من خلالها، أصبح حقيقة بارزة متجلية من خلال الكلمة الآدمية التي رأى بها الله عينه في هذا الوجود في شكل مخلوق جامع لكل صفاته وأسمائه يكون مرادفا للكون الذي يصبح هو بدوره "الإنسان الكبير" الجامع لكل حقائق الوجود وصور المخلوقات، و تظهر صور كل الأشياء من خلال الإنسان الذي يعتبر خليفة الله في الأرض يستمد إنسانيته من عموم نشأته التي تجمع بين عنصرين ،روحاني على صورة الحق وجسماني يضم صور العالم، فهو يحصر الحقائق كلها الإلهيات والكونيات، أما عن علاقته بالله فهو بمثابة العين التي يراها الله بها نفسه حيث ينظر الحق إلى الخلق فيرحمهم بعناية دائمة، وبالتالي يفهم النص عند المتصوفة على أساس أنه يحمل الكثير من الخبايا والأسرار مبادئ التسامح بين البشر والحوار بين الأديان واحترام الإنسان بمفهومه الكوني فالعودة لشخصية الأمير عبد القادر- في أفعاله وأفكاره- على سبيل

---

[١٩] الجياش عبد الحميد، التصوف الإسلامي بين الحقيقة والواقع، دار النهضة العربية، ط١، ٢٠٠٩ ص ١٧.

[٢٠] ابن عربي فصوص الحكم،مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠٥ ، ص ٧.

المثال، تجعلنا ندرك أنه رائد الأنسنة في شخصيات العرب، حيث تجلت بوضوح في أفكاره الصوفية، وفي مواقفه التي تحترم الآخر، وهي التي أشاد بها أصدقائه وأعدائه، وهي كانت وما تزال تسيل الكثير من الحبر، في مؤلفات شتى، تستحق وقفات مختلفة، وهي من دون شك أخذها من اهتمامه بالفهم الصوفي للقرآن الكريم بالدرجة الأولى، وجسدها كغيره من المتصوفة في محاربة التشدد والتعصب وحسن المعاملة، التي أسستل مفاهيم الحرية وحقوق الإنسان.... بمدلولاتها الحديثة والمعاصرة.

**الخاتمة:**

من خلال البحث في طبيعة القراءة الصوفية وأسسها الفلسفية وأبعادها، ندرك أنها تعبر عن نمط خاص لفهم النصوص وعلى رأسها النصوص الدينية، يمثل التأويل العرفاني الذي يتجاوز العقل المجرد والفقه المسدد إلى أثر المعرفة اللدنية كمحدد لمعانيها عن طريق الجمع بين العلم والعمل، والانتقال من الظاهر إلى الباطن، لغايات مختلفة تتعلق بفهم الوجود انطلاقا من الموجود ألا هو الإنسان كمحور له وكخليفة الله في الأرض، وبالتالي لا نبالغ إن قلنا أن العالم اليوم أحوج ما يكون للقراءة الصوفية للنص الديني خاصة في عصر الصراع بين البشر و حرب الماديات، لأنها أساس عودة الروحانيات وصناعة الإنسان الكامل وإرساء دعائم الحوار بين الحضارات والأديان والتسامح...، ومنطلق الاستقرار في العالم، وأرضية لمقومات النجاح للبشر في عالم الهنا وعالم الهنالك، ولكن لابد من السعي إلى توظيف أدوات الفهم المعاصر كالتفكيك والهرمينوطيقا والعلوم الإنسانية والاجتماعية في فهم النصوص الصوفية من أجل كشف المستغلق فيها ولهدف التحرر ولو نسبيا من التصورات المؤدلجة لها لحساب الانتصار للحقيقة التي غايات كل العلوم والفلسفات.

**مصادر ومراجع البحث:**

ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة -ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ الع رب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط١، ٢٠٠٤.

ابن عربي فصوص الحكم مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة مصر،ط١،٢٠٠٥.

أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار ابن حزم، بيروت لبنان، ط١، ٢٠٠٥.

الأمير عبد القادر الحسني الجزائري، المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف، تح: عبد الباقي مفتاح، مؤسسة الأمير عبد القادر، ط١، ٢٠٠٥.

بدوي عبد الرحمن، ملحق موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،، بيروت لبنان، ط ١، ١٩٩٦.

بومدين بوزيد، التراث ومجتمعات المعرفة، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ٢٠٠٩.

عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكر، مساجلات في قضايا اللغة والمعرفة والفقه والخطاب القرآني، ط١، ٢٠١١، دار القدس العربي للنشر والتوزيع،- وهران الجزائر.

الباحث وآخرون، قراءات في فكر وفلسفة علي حرب، -النقد، الحقيقة، التأويل- الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ٢٠١٠.

حرب علي، الممنوع والممتنع، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط٤، ٢٠٠٥.

حرب علي، نقد الحقيقة، المركز الثقافي العربي بيروت لبنان، ط٣، ٢٠٠٥.

نصر حامد أبو زيد، هكذا تكلم ابن عربي، المركز الثقافي العربي، ط٣، ٢٠٠٦.

نصر حامد أبو زيد، النص والسلطة والحقيقة-إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة-، المركز الثقافي العربي، ط٤، ٢٠٠٠.

طه عبد الرحمن، العمل الديني و تجديد العقل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط٢: ١٩٩٧،.

طه عبد الرحمن، روح الحداثة–المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط٢، ٢٠٠٩.

روجيه غارودي، الإسلام، دار الفارابي-الجزائر-، ط٢، ٢٠٠١.

الجياش عبد الحميد، التصوف الإسلامي بين الحقيقة والواقع، دار النهضة العربية، ط١، ٢٠٠٩.